اللغة العربية والتحديات في عصر العولمة

الأستاذ الدكتور: بلقاسم دفـــه
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات
جامعة الحاج لخضر– باتنة

مقدمة:

إن اللغة أداة اتصال بين البشر، وهي بوجهتها الصحيحة أقوى رابط يشد الأفراد والجماعات، ويكون من مجموعهم أمة متفردة قادرة على التطور والبقاء والخلود، فهي أبرز ما تتميز به الأمم والجماعات، وإذا تركت الأمة لغتها، واستبدلتها بلغة الأجنبي، يعني زوالها وفناؤها ككيان متميز بالرغم من أن أفرادها قد يبقون بأجسامهم على الرقعة الجغرافيا التى ينتسبون إليها.

ولغتنا العربية هي لغة الملايين من المتحدثين بها في الوطن العربي أو الناطقين بها في العالم الإسلامي وبعض أرجاء المعمورة، ولها مكانة متميزة بين لغات العالم، لا لأنها من أقدم اللغات الحية فحسب، بل لأن تكوينها وخصائصها المتميزة، يسرا لها القدرة على التعبير عن مختلف الاشياء المادية والفكرية، فلم تعجزعن أدق الأفكار العلمية والأدبية والفنية. ويكفيها فخرا أن نزل القران الكريم بها، وهو المصدر المعتمد للعربية، والأداة المكينة في نشرها بين أجناس وشعوب كثيرة اعتنقت الإسلام، واتخذته معتقدا موجها لحياتها الروحية والمادية.

فاللغة هي أداة التفكير، تتجلي قيمتها بخاصة في أنها الصيغة التي تحدد فيها المفاهيم والمعانى المجردة، وقد اعتزت العرب مند القديم بلسانها وبيانها، كما اعتزت بأصولها وأنسابها، كأنها أدركت العلاقة المتينة بين الجانبين، وان اللغة مرآة حياة الأمة، والسجل المعبر عن خصائصها، فلما أن شرفها الله سبحانه وتعالى بأن نزل القرآن الكريم بها، فقال:﴿ إنا أنزلناهُ قرآناً عربياً لعلكم تَعقلون﴾.[1] و﴿ لسانُ الذي يُلحدون إليه أعجمي، وهذا لسانٌ عربي مبينٌ﴾.[2] أضحى الاعتزاز بها منوطا بتلك الكرامة الإلهية، وباعثا إلى

دراستها لفهم آيات القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة وإدراك أسرارها وعميق دلالالتها في أحكام الشريعة، وفي حكمة الحياة وقيمتها، وفي كلام العرب شعرا ونثرا.

إن القران الكريم الذي اعتبر نزوله بالعربية من مظاهر سموه وإعجازه كان عاملا أساسيا في تثبيت هذه اللغة بمفرداتها وأساليبها، وفي نشرها بين الشعوب وحفظها، وبذلك ثبت أنه المحورالأساس للغة العربية والمصدرالمعتمد لها، والدرع الذي يثبتها أمام القوى والتيارات الغربية التى تواجهها.

وبفضل القرآن الكريم ظلت اللغة العربية الفصحي لغة العلم والأدب والفكر إلى يومنا هذا، وستظل ما دام هناك قرآن يتلى، وقد تكفل الله تعالى بحفظه، فقال:" إنا نَحنُ نزلنا الذكْرَ وإنا لهُ لَحَافِظون"[3]. وستتبوأ مكانتها بين اللغات، بفضل عزيمة علمائها.

1- أصالة اللغة العربية:

العربية هي إحدى اللغات السامية، وهى:(العربية، والعبرية، والآرامية والآشورية، والحبشية، والفنيقية)، وما تفرع من هذه الأسر. والعربية أقرب هذه اللغات إلى السامية الأم، كما أكد" تيودلدكه" فى أكثر من موضع فى مؤلفه" اللغات السامية"، إذ يقول: " إن العربية لا تزال أقرب اللغات- جدا- إلى اللغة السامية الأولى".[4] وعلل ما ذهب إليه باحتفاظ العربية بكثير من عناصر السامية الأم، فقال:" لقد احتفظت العربية، أكثر من أخواتها بكثير من الصور الصادقة لعناصر اللغة الأولى، مثل الكمية الأصلية، تقريبا من الأصوات الساكنة، وكذلك الحركات القصيرة من المقاطع المفتوحة، ولاسيما وسط الكلمات... والفروق النحوية التى أفسدت- إن قليلا، وإن كثيرا- في اللغات السامية الأخرى"[5].

وأشار إلى ما فقدته بعض اللغات السامية من الصيغ والتراكيب النحوية، في حين أن العربية لا تزال تحتفظ بها[6].

وذهب بعض علماء المسلمين من الهنود إلى تفنيد زعم القائلين من الأوروبين بحداثة أصول العربية بالقياس إلى اللغات الهندية الأوروبية، معتمدين فى ذلك على معرفتهم البالغة بالعربية واللغات الأوربية، فأصابوا- كما يرى العقاد- كثيرا فى تصحيح أخطاء اللغوين الأوروبين عند المقارنة بين الصيغ والتراكيب، من ذلك بحث مفصل للعلامة" محمد أحمد مظهر"، نشره بمجلة الأديان، الصادرة باللغة الإنجليزية فى باكستان، بعنوان:" العربية أم اللغات" ذكر فيه مئات من الألفاظ الأوروبية، التى اعتبرها من أصول

عربية، نحو كلمة(Bit) بمعنى قطع بالإنجليزية من مادة" بت" فى العربية بالمعنى نفسه، وكلمة(Atom) ومعناها لا يتجزأ، فهي مأخوذة من كلمة(طم) العربية، و(توم) هي (طم) بذاتها[7].

وعقب العقاد على ذلك بقوله:" نحن نعتقد أن اللغة العربية أقدم من معظم اللغات الحديثة، وأن شواهد سبقها فى التقدم تزيد على الشواهد التى يستدل بها على سبق أقدم اللغات الأخرى"[8]. وذهب إبراهيم أنيس إلى القول بأخذ الأبجدية اليونانية من العربية.[9] أما قدم اللغة العربية والحضارة العربية، فقد ذهب كثير من الباحثين من لغويين ومؤرخين إلى القول به، حيث عدوا الحضارات المعينية، والسبئية، والحميرية في جنوب جزيرة العرب، والفينيقية، والكنعانية، والآرامية فى شمالها، عربية[10]، حتى أن البعض منهم ذهب إلى أن الحضارات التى قامت بين النهرين من: سومرية، وأكدية، وآشورية، عربية.[11] ويشاطرهم الرأي فيما ذهبوا إليه أكثر من باحث من المؤرخين الأوروبين، فقد ذهب" مولر وغلازر إلى أن المعينيين أول دول العرب فى اليمن، أصلهم من أهل العراق الذين كانوا فى جزيرة العرب قبل ظهور" حمورابي" بقرون عدة، فلما ذهبت دولة عمالقة العراق، نزحوا إلي اليمن، واستقروا هناك، وبنوا القصور والمعابد، على مثل ما عرفوا فى بابل.[12]

ويضيف" أحمد رضا العاملي" على هذا، فيقول:" والدولة المعينية عرفت قبل المسيح بنحو خمسة عشر قرنا، ولا يخالف أحد من المؤرخين في عدها من العرب"[13].

وذهب اللغويان الألمانيان" فورست، وديلينزش" إلى القول بتفرع اللغات الهندية – الأوروبية من السامية، لأن أصول الكلمات السامية ثنائية(مؤلفة من حرفين) زيد على كل أصل منها حرف ثالث، وعمد العالمان إلى مجموعة من الكلمات الهندية– الأوروبية، وأشارا إلى التقارب بينهما فى أصواتها ودلالتها، وقررا أن الأصل السامى الثنائي هو الذي أخذت منه تلك الكلمات[14].

وقال بهذه الثنائية غيرهما من اللغويين الباحثين في العربية والعبرية والسامية بصفة عامة، منهم الأب" أنستانس ماري الكرملي"، و" أحمد فارس الشد ياق."[15]

والجدير بالذكر أن علماء العربية القدامى، كانوا قد أدركوا هذه الثنائية فى أصول الألفاظ العربية، وبخاصة" أحمد بن فارس"، و" الراغب الأصفهاني"، حيث ألف

" ابن فارس" معجم مقاييس اللغة على هذا الأساس، إذ يأخذ حرفين من المادة وما يلحق بهما، فيقول مثلا: الباء والجيم وما يثلثهما... وهكذا.[16]

ومهما يكن من أمر فالعربية أقرب أخواتها إلى السامية الأصل، وأكثرها احتفاظا بخصائص السامية الأم، وما دامت كذلك، فهى أقدم أخواتها الساميات، وعلى أي حال فإذا كانت العربية أقدم أخواتها، واللغويون لم يتوصلوا إلى رأي موحد، وقاطع، في أي من الفصيلتين اللغويتين أقدم؟ السامية الحامية، أم الهندية الأوروبية؟، فقد تبين مما لا مجال إلى الشك فيه قدم العربية وأصالتها وعراقتها، لدرجة أن ظهر للعديد من علماء اللغة أنها أقدم اللغات، فإن لم تكن كما رأوا، فهى على الأقل من أقدمها وأعرقها، وهى ميزة تحسب لها.

وإذا صحت الرويات، فإن تاريخ اللغة العربية قديم، فقد عاش أبو العرب إبراهيم علية السلام– قبل عيسى عليه السلام– بألفي سنة، ولعل العربية كانت قبل ذلك الزمن، فقد ورد عن رسول الله– صلى الله عليه وسلم أن" أول من كتب بالعربية إسماعيل". وقال أبو عمر بن عبد البر: وهذه الرواية أصح من رواية من روى:" أن أول من تكلم بالعربية إسماعيل"[17]، لأن فى هذا دلالة على أن العربية أقدم من ذلك بكثير، والكتابة لا تظهر مع بداية نشاة اللغة، وإنما بعد أن تنتشر، ويكون المتكلمون بها بحاجة إلى كتابة.

ويدعم هذه الروايات دراسة ألفاظ العربية وتراكيبها، وقد تناول عباس محمود العقاد الموضوع، واستدل على ذلك بدراسة ضمائر الجنس والعدد فيها، وتوصل إلى أنها أقدم اللغات الحية بدلالة الضمائر والأسماء الموصولة، وهذا" ظاهر من احتوائها عليها جميعا وبقاء أصولها جميعا فيها إلى اليوم مستعملة لأغراضها التي تناسبها".[18]

واستدل الأب" انستاس ماري الكرملي" بسفر" أيوب"، إذ يقول:" إن لغة الضاد قديمة يشهد على ذلك سفر" أيوب"، فإن كثيرين من العلماء يذهبون إلى أن صاحبه وضعه بلغته العربية، إذ فيه عبارات وتشبيهات ومجازات واستعارات لاتعرف إلا في العربية، ولا شك أنه نقل من اللغة العربية إلى اللغة العبرية، وبقيت في النقل أصول اللغة ومبانيها وصيغها على أصلها أو يكاد."[19]

والواقع أن دراسة اللغة العربية من داخلها ومقارنتها باللغات القديمة يبين قدم العربية وعراقتها، ويفتح المجال لعلم اللغة المقارن مواضيع جديدة تدرس فى ضوئها اللغات، وتظهر مراحل نموها وتطورها خلال القرون الطويلة.

وأهم ما يساعد على ذلك النصوص الأدبية، غير أن ما وصل من العرب لايمثل تلك العهود القديمة، وإنما يمثل ما قبل الاسلام بزمن لايزيد عن القرنين، وأهم النصوص التى بين أيدينا الشعر الجاهلى، فهو أقدمها، ولكنه لايحدد تاريخ العربية، لأنه بالنسبة لتاريخ العربية حديث. يقول الجاحظ:" فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالاسلام خمسين ومائة عام، واذا استظهرنا بغاية الاستظهار بمائتي عام."[20].

وما وصل من النصوص الشعرية، يدل على أنه قطع عدة مراحل في تطوره فلغته وأسلوبه وأوزانه تؤكد، ولاشك أنه ليس وليد قرن أو قرنين قبل الإسلام، وإنما هو نتاج قرون طويلة، شهدتها العربية قبل أن تكتمل ألفاظها ومعانيها وأساليبها، وتبرز فى النص الشعرى الذى أصبح" ديوان العرب".

واللغة العربية لها أصول، تأسست عليها في بنيتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، وهذه الأصول ثابتة في أصالتها، وثباتها واضح في تشبثها بهذه المستويات، حيث" لا يخفى في العربية صوت من أصواتها مهما تتقلب تصاريف موادها المختلفة، فمادتها الأصلية محفوظة، ورابطتها اللغوية مصونة"[21].

وهذه الأصالة قادرة برسوخها في القدم أن تكون منطلقا للتجديد، لأن التجديد يتطلب وجود أصالة فيها حياة وقوة كامنة، فيعيد فعل التجديد للغة القوة والحيوية ويبعث تلك الأصالة في أشكال لغوية جديدة، فيها ابتكار وإبداع.

2- حيوية العربية ونماؤها:

اللغة العربية من اللغات الراقية، فقد بلغت من الثراء اللغوي من المفردات وأساليب التعبير، ما أثارا عجاب كبار علماء اللغات من المستشرقين الذين اهتموا بدراستها بمعية أخواتها الساميات اهتماما خاصا، فقد أعرب" نولدكه" عن إكباره للعربية من وفرة مفراداتها، وكثرة صيغها النحوية، إذ يقول:" إنه لابد من أن يزاد تعجب المرء من وفرة مفردات العربية، عندما يعرف أن علاقات المعيشة لدى العرب بسيطة جدا... وبلدهم ذو شكل واحد، ولكنهم داخل هذه الدائرة يرمزون للفرق الدقيق في المعنى بكلمة خاصة."[22] ويقول أيضا:" والعربية الكلاسكية ليست غنية فقط بالمفردات، ولكنها غنية أيضا بالصيغ النحوية."[23].

كما أبان العالم" ارنست رينان" عن إعجابه بالعربية، إذ يقول:" من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوية، وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحاري، عند أمة

من الرحل، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها."[24].

فالعربية دخلت إلى الحضارات القديمة من بابها الواسع، وخرجت قوية واسعة، فأصبحت لغة الدين واللغة والعلم والفلسفة والأدب، واضمحلت بجانبها كل اللغات التي احتكت بها بعد الفتوحات الإسلامية، وتأسست حضارة عربية إسلامية، تطورت تطورا عظيما، شهد لها العالم بالعبقرية، ولم يكن أهلها مجرد نقلة للعلم القديم بل كانوا سباقين إلى تمثله وتمحيصه ونقده وتطويره تطويرا لا ينكره أحد، يقول يوهان فك:" ولقد برهن جبروت التراث العربي التالد الخالد على أنه أقوى من كل محاولة، يقصد بها إلى زحزحة العربية الفصحى"[25].

وإذا كانت هذه أقوال المستشرقين ممن لا تشدهم بها رابطة قرابة فلا غرو أن يذهب أبناؤها إلى ما ذهبوا إليه من الإكبار والإعجاب بسعتها، حتى أن بعضهم راح يعذر الإحاطة بها[26].

وجرى ذكر هذه السعة فى مؤلفات القدماء والمحدثين، لكونها خاصية من خصائصها، فهذا معروف الرصافى يقول:" ونحن إذا نظرنا إلى اللغة العربية فى دورها الجاهلى وجدناها لغة راقية جدا، ورأيناها من أغنى اللغات كلها، وأرحبها صدرا لما فيها من اختلاف طرق الوضع، والدلالة، واطراد التصريف، والاشتقاق، وتنوع المجاز، والكتابة، وتعدد الترادف، وغير ذلك من النحت، والقلب، والإبدال، والتصريف، وهي مع ذلك واسعة جدا."[27].

ويقول صبحي الصالح حين كلامه عن صيغ العربية وأوزانها:" رأينا- من أنواع الاشتقاق- أن العربية أصابت ثروة لغوية واسعة، مما تشعب عن أصولها من فروع، وما تكاثر فى موادها من صنوف وألوان، فكان العمل الاشتقاقي حركة، حية دائمة، تلد للغتنا كل لحظة مولودا جديدا وتلبي للأحياء مطالب التعبير."[28].

وقارن علي عبد الواحد وافي بين العربية والآرامية والعبرية، فتوصل إلى تفوق العبرية على الآرامية، وتقصيرها عن العربية، إذ يقول:" فد فاقت الأولى، ولكنها قصرت عن أن تدرك شأو الثانية، فألفاظها وأساليبها تتسع لكثير من مناحي القول، ولكن العربية تفوقها فى مرونة التعبير، والترادف اللغوي، وسعة الثروة في المفردات، وقواعدها سهلة مضبوطة، ولكنها لا تبلغ في دقتها وتنوعها قواعد العربية."[29].

والواقع" أن الذي جاءنا عن العرب قليل من كثير، وأن كثيرا من الكلام ذهب بذهاب أهله، ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير، وكلام كثير."[30].

فالعربية بحر زاخر من الألفاظ والصيغ والتراكيب لا يحيط به إلا من أوتي جوامع الكلم. فالعجز يكمن في ممارسات أبناء الأمة، وليس في العربية التي تحتاج في نماء ألفاظها، وتطور دلالتها إلى نخبة من العلماء تؤمن بقدراتها الذاتية، وقابليتها للاكتساب والتطوير، وهذا يرتبط أساسا بإعادة ثقة العربي بانتمائه إلى لغته، فلا وجود له من دونها، ولهذا نرى أن تأخر الأمة عن ركب الحضارة ناجم عن جهل مثقفيها بخصائص لغتهم التي بها تدون العلوم والمصطلحات، وتسجل أشكال الإبداع والابتكار، ومن ثم تتحدد قيمة المنجزات الحضارية.

ولعل من المناسب– هنا– تناول بعض الصيغ، مع العلم أنه لا يمكن اتخاذ قواعد صارمة في بناء الصيغ، لأن ما يشذ في اللغة كثير.

أ– المصدر الصناعي: وهو ما يدل على مدلولات كثيرة في مصطلح العلوم والحضارة، ويصاغ بإلحاق ياء النسبة والهاء بآخر الاسم أو المصدر أو الصفة أو حتى الجملة أحيانا، وذلك في مثل: الوطنية، الأسبقية، الحساسية، الأممية، وغير هذا كثير.

ب– التسمية بالمصدر والتسمية بالصفة: من خصائص العربية التسمية بالمصدر، وهو أسلوب انتهج منذ القدم في اختيار الكثير من الأسماء، ومن ذلك" القرآن" من المصدر " قراءة"، ومثله" التنزيل"، وهو مصدر يقصد به إنزال القرآن.

وهذه الطريقة في وضع المصطلحات واردة في بعض اللغات الأخرى، ففي الانجليزية– مثلا– يراد بكلمة(Allowance) التخصيص، ويستخدم– كذلك– اسم للمبلغ المخصص.

وفي هذا الباب مجال شاسع لثراء المصطلح العلمي والحضري، وبه نقلوا كلمة " التقرير" إلى المادة التي تقرر، و" التمرين"، وهو مصدر يحمل دلالة التدريب إلى اسم لما ينصح به للتدريب.

ويماثل هذا باب التسمية بالصفة، وهو– أيضا– أسلوب عريق في القدم، ومنه " الحسنة" يراد بها الخير، و" السيئة" يراد بها فعل الشر و" الأحياء" للناس الأحياء. وعلى هذه الصورة ألفاظ كثيرة. وعلى منواله في الأنجليزية استخدام لفظ(Adhesive)– مثلا– هو صفة واسم، فإن معناه(شديد الالتصاق)، وقد يستخدم للمادة اللاصقة كذلك.

وهذا الأسلوب يفيد كثيرا في صوغ المصطلحات، وبخاصة في صوغ أسماء الأعيان، ومن أمثلته في المصطلح الحديث اتخاذ كلمة" اللصوق" للمادة اللاصقة، و" الدريئة " لما تدرأ به النفايات، و" النبيطة" للأداة المستنبطة.

ج- اسم الآلة: يمكن اختيار المصطلح مبدئيا بحسب تسلسل حجم الآلة أو الجهاز أو الأداة، وذلك على النحو الآتي:

- صيغة(مِفْعل)،(مِفْعال)، و(مِفْعلة)، وتأتي من الفعل الثلاثي المتعدي.
- صيغة اسم الفاعل وتذكيرا وتأنيثا نحو: المرسِل، والمستقبِل، الطائرة، الكاتِم، العادِم.
- صيغة المبالغة باسم الفاعل مذكرا ومؤنثا، نحو: الدبَّابة، الغوَّاصة، السَّيارة.

وهنا أوزان أخرى تؤخذ سماعا لا قياسا نحو: رِتاج، لِجام، عِنان، فلا يصح أن نقيس كلمات مثل:(نِساف)، و(فِتاح)، و(جِماد) لمدلولات،(النسافة والمفتاح، والمجمدة)، ولو اعتمد ذلك لكان مردودا وغريبا عن الكلام العربي.

د- الأفعال الدالة على المشاركة: وهي مفيدة في لغة العلوم لدلالتها على العمليات المتبادلة، وتأتي على صيغة(تفاعل) والمصدر(التفاعل)، نحو: التماثل والتناظر، والتبادل، والتعادل، وغيرها كثير من مصطلحات العلوم.

هـ- أفعال المطاوعة: وهي صيغ مهمة في لغة العلوم لدلالتها على التأثر بفعل خارجي، ويأتي وزنها كثيرا على(انْفعل)، من الثلاثي المتعدي، نحو:(انكشف، انفتح، انكسر)، من (كشف، فتح، كسر)، خلا ما اشتهرت مطاوعته بوزن(افْتَعل)، نحو:(استمع، اجتمع)، من(سمع وجمع)، ومصدر هذين الفعلين(الانفعال، والافتعال). ويستخدم كثيرا في المصطلحات العلمية، مثل:(الانصهار، الانحلال، الانخفاض، الارتفاع، الانتشار)، وغيرها.

وتكثر دلالة المطاوعة- كذلك- على وزن(تفعَّل) لمطاوعة(فعَّل) المضاعف العي المتعدي، ومصدره(التَّفعل)، نحو:(التجمع، التحلل، التجمد)، وغيرها.

وهذا قليل من كثير مما تمكن الإفادة منه في الاشتقاق للأغراض العلمية، وهو لا يشمل الصيغ القياسية الكثيرة ذات الدلالات اللغوية المختلفة التي يمكن كذلك الإفادة منها في وضع المصطلح.

3- اللغة العربية والمصطلح:

لا ريب أن اللغة العربية أكثر اللغات قابلية للنمو بالاشتقاق. وقد أحصى أهل اللغة العربية مئات الصيغ الاشتقاقية التي مكنت هذه اللغة أن تصبح من أغنى اللغات وأغزرها مادة. إن هذه القابلية للأشتقاق تضع بين أيدي المختصين في حقل المصطلحات أداة فعالة، وتوفر لهم إمكانات واسعة في صياغة المصطلحات للمدلولات العلمية المتزايدة باستمرار.

ولقد اختلف اللغويون والنحاة منذ بداية الدرس اللغوي في موضوع اللغة، أهي سماع أم قياس؟ فرأى بعضهم أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم[31]، وأن إنكار القياس في النحو لا يتحقق لأن النحو كله قياس.

في حين يرى البعض أنه" ليس لنا اليوم أن نخترع، ولا أن نقول غير ما قالوه... وأن اللغة لا تؤخذ قياسا نقيسه الآن نحن"،[32] وإن ما نعود إلى الذخيرة اللغوية، وإلى ما سمع عن العرب الفصحاء.

وهذا الجدل بين العلماء لم ينته بعد، ولعل من العدل أن يقال: بأن بعض الصيغ يمكن أن يقاس عليها، وأن بعضا آخر لا يؤخذ الا بالسماع، فليس لأحد أن يعترض – مثلا– على قياس اسم الفاعل من فعل ثلاثي صحيح، وإن لم يرد كله في السماع، ولم يذكر في المعاجم، وهكذا يطرد قياس(باحث، دارس، ذاهب) والآف أسماء الفاعلين غيرها بهذه الصيغة. ولا يعترض– كذلك– على قياس اسم المفعول بزنة مفعول من أي فعل ثلاثي صحيح متعد، وإن لم يرد كله في السماع، ولم يذكر في المعجمات، وهكذا يطرد قياس(محسوب، ومعدود، ومسحوب، ومعلوم ومجهول). وقد نقيس مصدر كل فعل صحيح وزنه(تَفَعُّل)، فنقول:(التطور، والتقدم، والتأخر، والتعسف، والتمحل، والتجسس، والتصحر) حتى ولو لم نسمع بعض هذه الصبغ، ولم ترد في المعاجم، إلا أنه لا يجوز لنا – مثلا– أن نقيس مصادر على منوال(كَراهية، سماعية، رفاهية) من كل فعل ثلاثي، فتقول:(نَزالية، وصَعادية، ركوبية)، ولا نقيس من الثلاثي على وزن(معركة، ومعرفة، ومحمدة)، فنقول:(مَذهبة، ومأتية ومحسبة).

فمثل هذه الصيغ لا تؤخذ إلا بالسماع، وإلا إنفلت زمام اللغة، وأصبحت القواعد تعسفية.

وبين هذين الرأيين المختلفين والمتباعدين رأي وسطي، يرى عدم صحة إغلاق باب القياس، ولا فتحه على مصراعيه. والذي ينبغي القيام به أن توضع المصطلحات من لدن أهل الاختصاص تبعا لقواعد اللغة العربية.

و لعل من المناسب التطرق إلى ما ينبغي مراعاته عند و ضع المصطلح:

أ- توحيد المصطلح، وتجنب استعمال اللفظ الواحد لأكثر من مدلول، وذلك نحو ما جاء من الاستعمال لمصطلح التبريد، ليدل مرة على تبريد الهواء وتكييفه داخل البيوت، وتارة أخرى يراد به خفض درجة حرارة الأغذية ونحوها بوضعها في الثلاجة لوقايتها.

ب- الإفادة من الألفاظ القديمة المهملة، وعلى غرار ذلك اختير اللفظ العربي القديم " القطار" الذي أصل دلالته جماعة الإبل يلي بعضها بعضا في نسق واحد. وقد اصطلح به للدلالة على" القطار"، المركب من سلسلة متصلة من عربات النقل المتحركة على سكة حديدية، تشبه تقاطر الإبل.

ج- دراسة المدلولات المتقاربة علميا، ووضع مصطلحاتها في آن واحد بدلا من وضع مصطلح عربي لكل مدلول أو مصطلح أجنبي بصورة مستقلة، ومن غير دراسة المصطلحات المقاربة له.

د- فرص رقابة لغوية صارمة ودقيقة على المصطلحات إزاء هذا الحشد الهائل من الأسماء والمصطلحات التي تتطلبها المفاهيم والمعاني الجديدة، لضمان اتباع الطرق القديمة في اختيارها.

هـــ- التعريف بالمصطلح وإدراجه إزاء المصطلح الأجنبي، مع الإحالة على المعجم الأجنبي الذي اعتمد عليه في تعريف المصطلحات.

4- قابلية العربية للتطور ومواكبة العصر:

لا جدال فى أن كل لغة حية فى مجتمع متطور يجب أن تخضع لقوانين النمو وسنن التطور، فاللغة يجب أن تتطور وتنمو، لأن ذلك من علامات الحياة، ولأن حياة اللغة مرتبطة بنشاط وفاعلية الفكر البشرى وتطوره، وتطور اللغة يدل على التزايد المستمر فى مضمونها من المصطلح العلمى والحضارى للوفاء بمتطلبات التقدم العلمي والحضاري، وهي مستلزمات تتطور يوما فيوما. ومن هنا نجد معجمات العالم المتقدم على غير ما كانت عليه في مطلع القرن الماضي، فالانجليزية مثلا يضاف إليها يوميا مفردات جديدة، نحو:" Telephone, Radar, Radio, Helicopter, Transistor

Television, Plutonium,." وكثيرا من المصطلحا ت، فقد تزيد عن خمسة مائة وألف مصطلح(1500)، وعلى هذا المنوال يجب استمرار نمو المفردات فى اللغة العربية، لتضم ما يقابل هذه المصطلحات، وأعدادا أخرى من المصطلحات الجديدة على غرار " الهاتف"، و" المذياع"، و" الطائرة العمودية"، و" الغواصة"،" الباخرة"، و" البارجة الحربية"، ومثيلاتها مما لم يوجد في المعاجم العربية القديمة.

والواقع أن العربية قد أصابها الركود عدة قرون، فتأخرت بعض التأخر عن الركب الحضاري الذي يشهده الغرب فالقرن الواحد والعشرون يمثل تحديات كبرى أمام الأمة العربية الكبرى، فهناك تهديدات للغتها، وهويتها، وثقافتها، تتطلب من الأقطار العربية الوعي في ظل تعميم عصر التكنولوجيا والاتصالات والمعلوماتية والعولمة اللغوية والثقافية والاقتصادية والسياسية.

وفي ظل هذه العولمة يجب أن تتطور اللغة العربية، لأن التقدم الحضاري يرافقه توسع في مفردات اللغة، وهذا الذى حدث فى الغرب، إلا أن التوسع فى مفردات اللغات الغربية، قام أكثره على مفردات اعتباطية، غير أنه بسبب ذيوعه وانتشاره اكتسب دلالات معينة مفيدة، ساعدت على تطور ونمو مفردات المعاجم الغربية، وسبب صعوبات في إيجاد البدائل المقابلة لها بالعربية، لكن هذا التوسع بالرغم من اعتباطية العديد من المفردات التي أقر استخدامها أو جدهوة بين معاجم اللغات الغربية التي اشتملت على الكثير من هذه المفردات، والمعاجم العربية التى حرصت على استعمال الفصحى القديمة، ولم تدون الكثير من المفردات التى استخدمت في عصور ازدهار الحضارة العربية بعدها مفردات مولدة أو دخيلة، وبالرغم من هذا التجديد فإن ما أقرته المعاجم العربية من مفردات تفوق ما في اللغات الغربية.

والمشكلة التي تواجه تطوير اللغة العربية للحاجات الحضارية الحديثة تتمثل في أسلوب عرض مادة هذه المعاجم، فإن أكثرها ذيوعا، القاموس المحيط، ولسان العرب، والعباب، فهذه ترتب المفردات تبعا لأواخر جذورها، وتورد لكل مفردة معاني مشتقاتها، من دون النظر للتطور التاريخي للمفردات، مما أوجد صعوبة فى البحث عن المفردة المطلوبة، وقد ألف العرب عددا من المعاجم بمنهج آخر، حيث رتبت فيها المفردات تبعا لمعانيها، لكن هذه لم تنل رواجا عند تعريبها.

وقد أعدت خلال القرن الماضي معاجم متخصصة ودوريات وموسوعات علمية في ميادين الطب واللغة والفلسفة وعلم النفس، وهى تقدم مادة غنية لمن يبغي العمل في مجال التعريب.

وكان الاختلاف بين عدد من المفردات العلمية في اللغات الغربية وبين عددها في المعاجم العربية من حجج بعض دعاة العزوف عن استخدام العربية في دراسة العلوم والتكنولوجيا، وقد كانوا على غير علم بأن كثيرا من مفردات المعاجم الغربية هي ابتكارات اعتباطية، لا علاقة فيها بين الدال والمدلول، وأن قواعد اللغات الغربية ليست بأوسع وأمتن من قواعد وأسس اللغة العربية، وأن العربية قد وسعت كثيرا من مفردات المعرفة في الماضي، ومازالت اليوم تشق طريقها، فضلا عن المفردات العربية الأصيلة التي تتوافق والهوية الثقافية العربية.

إن دعوة دعاة التغريب، الذين يدعون إلى استعمال اللغات الغربية من إنجليزية وفرنسية في دراسة العلوم، لم تنبعث من اعتقادهم من أن اللغة العربية ليست بقادرة على استيعاب لغة العصر، وإنما هي منبعثة من دافع نفسي، وهو إعجابهم بالحضارة الغربية، وليس لاعتقاد بعجز اللغة العربية على مواكبة التطور، إلا أنه بالرغم من عدم التحكم في التقنيات الحديثة، فإن العلماء العرب على مختلف تخصصاتهم بإمكانهم دفع عجلة التطور إلى الأمام، وذلك بالعودة أو لا إلى إتقان أساليب اللغة العربية، والإفادة من المخزون الكبير من الألفاظ القديمة المهملة، والاتصال ثانيا بالغرب ومحاكاتهم في أساليب البحث، ونقل علومهم إلى العربية.

إن الاتجاه المعادي لتعريب العلوم يؤدي حتما دورا تخريبيا ضد اللغة العربية، لأنه يمنع اللغة من النمو والتطور عبر القنوات المعروفة في الاشتقاق والنحت والتعريب وغيرها، كما يقيد اللغة العربية في المشاركة العلمية لتكون لغة التكنولوجيا الحديثة، شأنها في ذلك شأن اللغات الأخرى، ويكون هذا الاتجاه وضعا نفسيا سيئا لدى الإنسان العربي، قد يؤدي إلى احتقار لغته والتقليل من شأنها، لأنها ليست لغة العلم والتكنولوجيا، ويفضل عليها لغات أخرى، مما يزيد الهوة بين المثقف العربي، والعالم ولغته ووجوده العربي.

ولذلك بات من الضروري الاهتمام باللغة العربية لتستمر في أداء وظيفتها على الصعيدين: لخلق الثقة بقدرة العربية على الأداء العلمي والأدبي، ولاستمرارها في عملية التجدد والإبداع اللغويين في مجال المصطلح العلمي والتحليل والشرح.

الخـــــاتمة:

ليست الغاية من هذا المقال أن ألم بكل قضايا اللغة العربية ومواكبتها للعصر، وكل ما أبتغيه أن أكون قد وفقت إليه ولو بصورة جزئية، هو أن أثير الانتباه إلى أبعاد هذه القضايا وأهميتها بالنسبة إلى حاضر الأمة العربية ومستقبلها.

إن موضوعا كهذا يتطلب مسؤولية الأمة، وهنا يكون الواجب العربي مزدوج المسؤولية، فهو بحاجة إلى مسؤولية علمية مقننة، تضطلع بها المجامع العلمية على تعددها، والمختصون على اختلاف تخصصاتهم، ومسؤولية سياسية يقوم بها المسؤولون في الأمة التي تستطيع بالقوانين أن تحافظ على اللغة العربية، وأن توفر لها أسباب التطور والنمو والخلود.

وغني عن التوضيح أن أقول: إن المجامع العلمية العربية بسبب تعددها والقوانين الإقليمية والقطرية التي تعمل بضمنها هي بحاجة إلى عمل مشترك تتكامل في إطاره الجهود العلمية، وتتضافر إجراءات الدولة بالإفادة من تلك الجهود ووضعها موضع التنفيذ والتطبيق. ومما يؤسف له حقا أن هذه المجامع لم توفق حتى الساعة لإنشاء اتحاد عربي للمجامع العربية الذي أصبح ضرورة ملحة في عصر العولمة والهيمنة الغربية.

وبناء عليه أرى أن من أولويات العمل به اعتماد العربية أداة فعالة في ابتكار العلوم والمساهمة في تطويرها، ومراعاة ما تقتضيه من الدقة والوضوح، وتحديد المفاهيم والمصطلحات الأدبية والعلمية، مع إغناء الثقافة العربية والعلم المتخصص بالآثار العلمية والأدبية في كل ميادين الحياة.

الهوامش:

(1) سورة يوسف، 2.

(2) سورة النحل، 103.

(3) سورة الحجر، 9.

(4) تيودلدكه، اللغات السامية: تخطيط عام، ص 8.

(5) نفس المرجع، ص 13.

(6) المرجع السابق، ص 8.

(7) العقاد، أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، دار المعارف، القاهرة، 1963، ص 15–16.

(8) العقاد، أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، ص 16– 19.

(9) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، ط4، 1971، ص 94.

(10) أحمد رضا العاملي، مولد اللغة، مطبعة سميا، بيروت، 1956، ص 44.

(11) نفس المرجع، ص 45.

(12) المرجع السابق، ص 44.

(13) المرجع السابق، ص 45.

(14) علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط4، 1957، ص 104.

(15) رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، دار الحمامي للطباعة، القاهرة، 1973، ص 264– 266.

(16) علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ص 206.

(17) السهيلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1971– 1973، 1/ 78، 79.

(18) عباس محمود العقاد، أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، ص 71.

(19) أنستاس ماري الكرملي(الأب)، نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها، المطبعة العصرية، القاهرة، 1938، ص 101.

(20) الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة مصطفى الباني، الحلبي، القاهرة، ص 1945، 1/ 74.

(21) صبحي الصالح، فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1978، 290، 291.

(22) نولدكه، اللغات السامية: تخطيط عام، ص 82.

(23) نفس المرجع، 82.

(24) محمد الخضر حسين، دراسات في العربية وتاريخها، المكتب الإسلامي، دمشق، مكتبة دار الفتح ط3، 1960، ص 19.

(25) يوهان فك، العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، ترجمة عبد الحليم النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، 1951، ص234.

(26) ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة، بيروت، 1964، ص 47– 64.

(27) معروف الرصافي، الأدب العربي ومميزات اللغة العربية في أدوارها المختلفة الأدبية، مطبعة المعارف بغداد، ط2، 1952، ص 16.

(28) صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص 328.

(29) علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ص 235.

(30) ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ص 67.

(31) السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق أحمد محمد قاسم، مطبعة السعادة بالقاهرة 1976، ص 108.

(32) ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ص 33.